

محمود حسن اسماعيل وصوره الشعرية



تعد الصورة الشعرية واحدة من أهم المكونات الرئيسية لبناء القصيدة . وهي تمثل وحدة قائمة بذاتها ، ولكنها في الوقت نفسه لا تنفصل عما قبلها ، وما بعدها ، وبمقدار نجاح الشاعر في ابداع وتركيب الصور الشعرية يتنامى عمله ، ويكتمل بالتالى بناؤه الشعرى .

وبالنسبة إلى الشاعر العربى القديم ، فإن البلاغة العربية قد صنفت له مجموعة من النماذج التى يمكن أن يصوغ على منوالها صورته الشعرية . وليس التشبيه ، والمجاز ، والاستعارة والكناية .. سوى قوالب أو أنماط عامة ، يمكن للشاعر أن يستعين بها لرسم ما يشاء من الصور الشعرية المتنوعة الملامح والمظلال .

وفى العصر الحديث ، أضافت ترجمة الشعر الغربى ، وكذلك ما نقل إلى اللغة العربية من مؤلفات النقد والأدب الأوروبيين ، رصيذا آخر من ألوان التعبير والتصوير الشعرى ، فأسرع الشاعر العربى بالاستجابة إليها ، واستخدمها فى عمله . ولعل أهم ما طبق فى هذا المجال وسيلتان هما : تراسل الحواس ، والمعادل الموضوعى ، وإلى جانبهما شاعت تأثيرات المذاهب الأدبية التى ظهرت فى الغرب ، كالرومانسية ، والواقعية ، والمسريالية ..

وهكذا أصبح أمام الشاعر العربى المعاصر تراث قديم وتراث وافد ، وراح يتردد بينهما بدرجات متفاوتة ، وأحيانا يمزج بينهما ، وفى أحيان أخرى يتبنى واحدا منهما دون الآخر . ولعل هذا أحد الأسباب الكامنة وراء ما نشاهده اليوم على المساحة الشعرية من تنوع وثراء ، وما نعانیه - فى نفس الوقت - من تضارب وتناقض .

ولكى نظل فى إطار الصورة الشعرية داخل القصيدة العربية الحديثة ، يمكن القول بأنه قد لحقها الكثير من التطوير ، وخاصة مع حركة الشعر الحر ، التى بدأت بالسياب وصلاص عبد الصبور .. وهنا لابد من الإشارة إلى ان بنية القصيدة العربية قد تعرضت لتحويل جذرى ، مما انعكس بوضوح على تكوين الصورة الشعرية ، وعلى الدور الحيوى الذى أخذت تؤديه - جزئيا أو بوجه عام - فى داخل القصيدة ، وأحيانا المقطع الواحد منها .

ومما لاشك فيه أن الشعر العربى القديم قد قام - فى معظمه - على وحدة البيت بمصراعيه المحددين ، وقافيته الختامية . وبالتالى فإن المساحة التى كانت متاحة أمام الشاعر لرسم صورته الخاصة به ، انحصرت فى عدد محدود من الكلمات التى يحكمها الوزن الموحد والمقافية المطردة ، ولذلك كان على الشاعر أن يجهد كثيرا لى يركز الصورة ، ويقتصر منها على أهم العناصر . أما الشعر الحر ، أو شعر المتفعيلة ، فقد اتسعت مساحة رسم الصورة ، ولم يعد هناك ما يوقفها أو يحد من امتدادها .. وإن كان ذلك لا يعنى - على الإطلاق - ان صورة الشاعر العربى القديم كانت ذاقصة أو باهتة ، وأن صورة الشاعر الحديث مكتملة وواضحة ، فإن هناك فى الشعر العربى القديم صورا رائعة جاءت فى بيت واحد ، كما توجد فى شعر المتفعيلة صور رديئة ، على الرغم من اتساع المساحة أمامها !!

ويبقى بعد ذلك ، أن كل شاعر يتميز بخصوصيته فى تكوين الصورة الشعرية ، وفى انتزاع عناصرها من العالمين : المحسوس والمتخيل ، وفى قدرته على إحداث التأثير المناسب من خلالها .

ويعتبر محمود حسن اسماعيل من كبار شعراء العصر الحديث ، وهو من "المخضرمين" الذين كتبوا الشعر فى القالب التقليدى ، وفى الشكل الحديث ، وفى رأى ان مدخل الصورة الشعرية هو أفضل المداخل لعالم محمود حسن اسماعيل الشعرى ، فقد كان من أكثر الشعراء احتفاء بالصورة الشعرية . والمقارن لدواوينه منذ البداية وحتى الديوان الأخير - يلاحظ بوضوح مدى الثراء والتنوع فى الصور الشعرية لديه ، وكذلك مدى الجهد الذى بذله من أجل تكوينها ، ثم تركيب بعضها إلى جوار بعض فى القصيدة الواحدة .

يقول الشاعر الماسباني "لوركا" عن عملية الابداع الشعري انها أشبه بعملية الصيد الليلي في غابة يخرج الشاعر "الصادئ" وليس معه من الأسلحة سوى المتصنت الشديد، والترقب الحذر، والرغبة العارمة في الماقتناص .. ويظل مختبئاً بين أشجار الغابة دون أن يحدث أي حركة حتى يفاجئه "الحظ السعيد" بصيد عابر، فيسرع إلى اقتناصه، والعودة به ..

لكن في أحيان كثيرة قد يمضي الليل بأكمله دون ظهور أي صيد، وفي أحيان أخرى قد يكون الصيد قليل القيمة أو فاقدها .. وهنا يرجع - الشاعر - الصادئ خالي الموضاض، مرهقا من السهر والترقب وشد الأعصاب ..

تلك هي حياة الشاعر في اقتناص الصور الشعرية التي يكون منها قصيدته، وهي تتوقف - كما يرى لوركا - على الحظ، ولكنها تتطلب أيضا التهيؤ اللازم لملاقاة هذا الحظ في الوقت المناسب، ثم استعداد الشاعر بعد ذلك لقبوله، ونسبته إلى نفسه .

ويكاد حديث لوركا ينطبق تماما على حياة محمود حسن اسماعيل فقد كان دائم الخروج الليلي إلى الغابة الشعرية، ثم العودة منها بالصيد الذي تتفاوت قيمته بين المتناقض، والمألوف، والمبهر، والفائق المتميز .

يقول محمود حسن اسماعيل في قصيدته "إلى سجينه المقصر":

لم يبق منه الحب الما آهة

مجنونة الحركات تقلق ساحه

وقصيدة هزت ملأحنها الدجى

ومحت رؤاه، وفزعت أشباحه

ومن الواضح أن (الآهة المجنونة الحركات)، ليست بالصورة الجيدة، ومما يقلل من قيمتها تطوير وصفها (بإفلاق الساج) الذي ألجأ الشاعر إليه - في رأيي - التزام المقافية .. كذلك فإن تصوير المتبقى من المحب بـ (قصيدة هزت ألحانها الدجى، ومحت الرؤى، وفزعت الأشباح) لا يخرج عن كونه تصويرا عاديا يأتي في إطار وزن وقافية، يحرص الشاعر على أن يسوقهما على غرار ما وصله من تراث شعري، دون أن يتميز بوشية خاصة، أو مغامرة فريدة .

كذلك حين يصف نفسه بعد ما أبعدوه عن حبيبته فيقول:

كالمطائر المنبؤ في قلب الفلا

يذرى المهجير بساحه أرواحه

فليس في الصورة إبداع ، كما أن عناصرها مفككة ، وبالتالي فإن تأثيرها يكاد يكون معدوما ، ولما حظ هنا كلمة (ساحه) التي يسرف الشاعر في استخدامها ، وهي كلمة عامة لا ضابط لها .

وفى قصيدة "انطلق المارد" يقول:

والأفق طير حائق في الدجى

لص الردى ، تخشى المنايا أذاه

ينقض من كل سماء على

سوانح الدوهم ، وهمس الشفاه

وهنا يتعجب القارئ المتأمل في الصورة الشعرية من تناقض عناصرها ، وأكد أنا شخصيا أرجع ذلك إلى السرعة في رسمها . فهو يصف الأفق بطائر حائق في الدجى وكان من الممكن أن يكتفى بأنه طائر حائق فقط .. ثم يقول إن المنايا (جمع منية وهي الموت) تخشى أذاه ، فأى ريشة رسمت هذه الصورة ؟ وكيف ؟

وفى قصيدة "عصا المعرى" يصف العصا بقوله:

لا تستقر على حال وساوسها

فعودها من سكير الشك شراب

وهنا بالطبع يعلو الشاعر قليلا عن الصور التقليدية ليبدأ الدخول في مستوى أعلى من الصور الشعرية المتميزة ، فقد أضفى الحياة على عصا شاعر المعرة ، وجعلها دائمة الوسواس لا تستقر على حال .. والسبب في ذلك أن عودها يشرب كثيرا من سكير الشك ، وهنا يقوم الشاعر باستخدام تراسل الحواس ببراعة : فالمسكير الذي هو غاية النازر يصبح شرابا تسقى منه العصا أو عودها . وإن كان هذا لا ينبغي أن يبعدها عن تأثير الشاعر القوي بمشاهد القيامة في القرآن الكريم . وأنا هنا أنبه إلى أحد مصادر الشاعر في معجمه الشعرى المليء بكلمات مثل : السكير ، والملطى ، والجحيم ، وتشوى .. الخ .

وفى قصيدة "قاب قوسين" يقول:

لا تهابي أى ليل ، بعد ما
شبيت ذارك أوهام العصور
وسقتك الرق معصوب الرضا
أعزل الحسرة ، مسلوب النصير

ومن الممكن أن نتعجب أيضا من صورة (مشيب النار) التى جاءت لتكون معادلا موضوعيا لخمود النار أو انطفائها ، ولكنها لم تؤد ما كان مطلوبا منها . فالمشيب مرتبط بالضعف لكنه مرتبط أيضا ببياض الشعر .. وهكذا فإن وصف النار بالمشيب لا يؤدى تماما ما يقصده الشاعر . فإذا انتقلنا إلى البيت الثانى وجدنا أن أوهام العصور سقت نفسه أو روحه الرق ، معصوب الرضا ، أعزل الحسرة ، مسلوب النصير ، وهى كلها مضافات مقلوبة للرضا المعصوب ، والحسرة العزلاء ، والنصير المسلوب .. (ومن وجهة نظرى لا أكاد أجد هنا إلما قدرة لغوية لا ترقى إلى مستوى الريشة التصويرية) .

فإذا ما قلبنا هذه الصفحة من الصور الشعرية العادية أو المتناقضة لدى الشاعر إلى صفحة أخرى بل صفحات تمتلئ بالصور الحية المبتكرة ، والتى تحدد فى ذاتها خصوصية محمود حسن اسماعيل وجدنا عالما آخر يفيض بالألوان والظلال ، ويوغل بنا فى أعماق تجربة روحية باللغة الصدق ، وتجربة شعرية ناضجة ومكتملة .

فى قصيدته "الضباب الأخضر" يقول:

دعونى أغنى
فإن الغناء طريقى إلى كل سر بعيد
خلقت لأرتاد روح الحياة ،
وأستل أعماقها للوجود
ومهما سرى قبلى - المسائرون ،
فإنى على كل خطو جديد ..

وهكذا يلخص الشاعر دوره الشعرى الذى عاش ملتزما به ، وهو البحث عن روح الحياة وأعماقها عن طريق الشعر ، والتأكيد على تمييزه عن الشعراء الذين سبقوه بالمجدة والتفرد .

ولعل أفضل ما يعبر عن تفرد محمود حسن اسماعيل قصيدته العجيبة "موسيقا من الجن" التى يتجاوز فيها - عن جداره - معظم شعراء العصر الحديث بدون استثناء .. يقول فى مطلعها :

وأكاد أسمعهم
ورغم ضراوة الغيب الكثيف ،
أكاد أسمعهم وأبصرهم
وأرى حفيف خطاهم

خلف الأثير مزاهرا حمرا
تغنيهم وترقصهم
يتسللون ويمرقون
ولما طيور الوهم فوق المظن
بالأحلام تدركهم
وأكاد من خلدي أكلهم

وفيه يقول :

قى يدى قلب الأثير
وصافى بيديك موكبهم

هنا الصورة مستمدة من عناصر حسية بسيطة ، ولكن تركيبها ينقلها إلى مستوى فنى . ولابد من التنويه بقوة خيال الشاعر ، وقدرته على التجول فى عوالم غير مألوفا ، بل واندماجه الكامل فى تفاصيلها الدقيقة .

يقول فى نفس القصيدة :

مست يدى قدحا على فمهم
عطشان للأسرار
فاسقونى ،
وكدت أذوق ما ذاقته نظرتهم
بل ذقتها ، وغدوت مشدودا بعصبتهم
وشطرت ذاتى :
واحدا معهم ،
والواحد الثانى يراقبهم
هيا .. وسرت بنصف مغترب
وخيال ضيف عابر معهم .

وفى قصيدته "مأتم الطبيعة" يستخدم الشاعر صوراً مطعمة بكلمات ذات إيحاء يتلاءم تماماً مع المضمون مثل (أطرق - ذبيح - الكلام بكسر الكاف جمع كلم أى جرج - دجا - سجي - السكون - دثار الموت - ظلال - لهاب - شجون - أخرس - شجو - خطب - دهى - أسى أطبق) فهذه سبع عشرة كلمة تم حشدها فى مقطع واحد ، يقول فيه :

أطرق المطير على هام الغصون

كذبيح نضرت فيه الكلام
ودجا الكون ، وسجاه السكون
بدثار الموت ، والموت ظلام
ونكا فيه لهاب للشجون
أخرس المشادي بشجو وغرام
أى خطب قد دهاه
وأسى أطبق فاه ؟

ومهما يرحل المشاعر بعيدا ، ومهما يصعد ويخلق ، فإنه يحس دائما - وفى النهاية أيضا - بأنه لم يشاهد من (عالم الأسرار) سوى القليل ،
وان غيبا هائلا وشاسعا ما يزال محجوبا عن قدراته .

وفى آخر قصيدة من ديوان "لأبد" يقول محمود حسن اسماعيل:

إلهى وما زال فى النأى سر
وشط من الدوحى ، ما زرتة
ولما شربت حيرتى منه لحننا
ولما أى يوم بها جئتة
عميق كحلم الرؤى فى الخيال
على غفوة الروح كفنته
توارى وأسبل أنغامه
على وتر كنت قطعتة
وأحرقت فيه ربيع الحياة
ومن غفوة القلب ودعته

فإذا حاولنا أن نستخرج الصور الشعرية المتميزة من هذا المقطع وجدنا "سر النأى" و "شط الدوحى" و "شراب الحيرة لحننا" و "حلم
الرؤى فى خيال مكفن" وإسبال النغم على وتر مقطوع ، و "إحراق ربيع العمر.." ومن الواضح أنها كلها صور خاصة بمحمود حسن
اسماعيل . وهى من "منمنماته" التى اشتهر بها ، والتى تمثل لبزات رئيسية فى قصائده